كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في حفل إطلاق كتاب "زمن سمير فرنجيّة... سيرة بقلم محمّد حسين شمس الدين"، وذلك يوم الأربعاء الواقع فيه ٢٩ أيّار (مايو) ٢٠١٩، في الساعة الخامسة من بعد الظهر، في مسرح فرانسوا باسيل، في حَرَم الابتكار والرياضة.

أهلاً وسهلاً بكم جميعًا أيّها الأحبّاء،

في داركم، دار الجامعة اليسوعيّة، التي احتضنت الأستاذ سمير طالبًا وموجّهًا وأستاذًا ومستشارًا في قاعاتها ومنابرها.

ها قد دقّت الساعة، إنّه زمن سمير فرنجيّة، إنّه زمن الكتاب، زمن سيرة ذلك الفتى والشاب الذي طبع بطابعه الغلاف الأخير من كتاب لبنان، إنّه زمن سمير فرنجيّة بقلم محمّد حسين شمس الدين!

على الأكيد وفي هذه الورقة العُجالة، لن أستفيض في التفاصيل، فالأفضل للقارئ أن يضطلع بوجه مباشر على كتاب السيرة في صفحاتها الثلاثماية وثلاث عشرة. فأسلوب المؤلّف هو السهل الممتنع، المشوِّق، الذي يروي قصّة سمير فرنجيّة بكلمات منتقاة وبسيطة، ممّا يدفع بالقارئ إلى الغوص في قراءة السيرة والتأمّل في محتوياتها ومعانيها.

نحتفل اليوم بإطلاق زمن سمير فرنجيّة سيرةً وكتابًا، إلاّ أنّنا نلتفّ أيضًا حول عائلة سمير فرنجيّة الصغيرة، نحن عائلته الكبيرة، لتكريمه مرّة جديدة. بالأمس كان هنا في هذه القاعة بالذات لتكريمه من قِبل أكاديميّة العلاّمة هاني فحص وكان مشعًّا في كلامه وفي وجهه وسلاماته. وكيف لا نكرّم ذلك الوجه البهيّ وتلك الإرادة والقوّة وذلك الفكر الذي أخرجنا كما قال أحد رفاقه من مربعنا الطائفيّ والانكفاء على الذات إلى رحاب العمل الوطنيّ. سمير فرنجيّة صاحب الثورة الهادئة، وقد بشّر بها وصاغها وكوّنها وسلّمها إلينا وديعة ثمينة فلا نفرّط بها، هو القلِق دومًا والساعي إلى اكتشاف ذاته الباطنة عبر علاقته بالآخرين حيث بَرز كرجل حوار يريد أن يبني لبنانه طريقًا نحو المحبّة والسلام.

في هذه السيرة نتوقّف عند المحطّات التالية :

سمير فرنجيّة من مدرسة الجمهور إلى الجامعة اليسوعيّة،

سمير فرنجيّة ومسيرة رفض العنف،

سمير فرنجيّة والعيش اللّبنانيّ المشترك،

سمير فرنجيّة والقِيَم الإنسانيّة،

سمير فرنجيّة من مدرسة الجمهور إلى الجامعة اليسوعيّة

من مدرسة الجمهور حيث تابع سمير فرنجيّة دروسه التكميليّة والثانويّة، يذكر سمير محطّته الأخيرة في صفّ الفلسفة حيث يصف تلك الأيّام بأنّها كانت مائلة إلى العنف "وهذا لا يعني أنّي قتلت رهبانًا في كنائسهم والأديرة. كلا "كان يدخّن والتدخين ممنوع ولا يزال وكان سلوكه المدرسيّ شديد الصخب والمناكفة، ووقعت الواقعة في أحد الأيّام حيث اتّخذ القرار الصارم بأن يترك سمير صفّه ويغادر المدرسة. قال عن ذلك اليوم بأنّه كان أجمل وأروع أيّام حيّاته حيث انطلق إلى فرنسا لإكمال سنته الدراسيّة ونيل شهادة البكالوريا. وقد تحدّثت يومًا بهذا الموضوع مع سمير بوصفه متخرّجًا من متخرّجي الجمهور وكنت آنذاك رئيسًا لها، فقال لي : "الجمهور هي مدرسة بالفعل، أنتم في مدارسكم تعلّمون الحريّة ومحبّة الحريّة من خلال صقل الشخصيّة ومن خلال الدروس المختلفة، وفي الوقت نفسه النظام وتعلّمون على تطبيقه فيعيش الواحد تناقضًا داخليًّا بين أن يمارس حريّته كما يحبّ واحترام القانون. والواقع في الحياة عليك أن تعيش هذا التناقض في شكلِ تآلفٍ لتستقيم علاقتك بنفسك وبالآخرين".

هذا الإنسان الحرّ عاد من فرنسا ليلتحق بمدرسة الآداب العليا في الجامعة اليسوعيّة حيث انخرط في السلك السياسيّ من جهة اليسار حتى الإلتزام بالنظرة الماركسيّة إلى الإنسان والعالم. هذا الرجل المعتزّ بحريّته أصبح ملتزمًا بقضايا شعبه مثل قضيّة الشعب الفلسطينيّ، منفتحًا على قضايا

الشعوب في العالم، يبشّر طوباويًّا بعالم جديد ولبنان جديد يكون صفحة جديدة يسطّر عليها تاريخ النهضة الثانية والإنماء والتطوّر والثقة بالذات لمنع القوى التقليديّة والطائفيّة من تثبيت قبضتها على المصير.

إلاّ أنّ كلمة قالها الصحافي الكبير جورج نقّاش حفرت ما حفرته في فكر سمير فرنجيّة وعقله عندما قال : "إنّ لبنان ليس البلد المثاليّ الذي نريد، إلاّ أنّه بين منظومة بلدان الشرق الأوسط هو الأقلّ فظاظة وفظاعة وقد أمّن لبنيه الحدّ الأدنى من الديموقراطيّة وحريّة الكلمة والضمير".

فهذا العاشق للحريّة لم ينسَ هذه الكلمات وقد التقى وقتها بالأب سليم عبو الذي كان عرفه أستاذًا في قسم الآداب الفرنسيّة ومديرًا للمركز الجامعيّ الطالبيّ. فتبادلا أسرارهما وشيئًا من يساريّتهما وكوّنا صحبة لذيذة أظهرت مفاعيلها بعد السنة ٢٠٠١، ونداء البطريرك صفير وسينودس المطارنة عندما كان الأب عبو رئيسًا للجامعة وقد قرّر آنذاك تأييد النداء فعليًّا والسير به أكاديميًّا وفكريًّا حتى الوصول إلى السنة ٢٠٠٥، سنة خروج الجيوش وارتعاش الأرز وبروز الوحدة الداخليّة اللّبنانيّة بشكلٍ ساطع. إذ ذاك كلّف الأب عبو الأستاذ سمير فرنجيّة بأن يكون الذراع العمليّ في تعزيز استنهاض القوى المؤيّدة للنداء ولحريّة لبنان واسترداد سيادته الكاملة. ومن الأعمال التي جمعت بين سمير فرنجيّة والأب سليم عبو مع أفول العمر فكرة كتاب أنسيكلوبيديا العيش اللّبنانيّ المشترك وقد توصّلا إلى بعض النصوص الهامّة النهائيّة، إلاّ أنّ العمل ما زال في منتصف الطريق ونرجو أن يوفّق الدكتور أنطوان قربان من جامعتنا، مع أقران له، أن يكمل نصوص المجموعة التي تفتح الطريق أمام إقامة مرصد العيش المشترك اللّبنانيّ أو كرسيّ سمير فرنجيّة للعيش الوطنيّ المشترك.

سمير فرنجيّه ونبذه العنف

بَرز سمير فرنجيّة في تلك الفترة مناوئًا للنظام السياسيّ الذي لم يكن قابلاً للإصلاح والذي يعاني من نقص في شرعيّته إذ لم يحترم العقد الذي تمنحه تلك الشرعيّة وهو الميثاق الوطنيّ اللّبنانيّ.

فالثورة التي دعا إليها كانت الثورة الهادئة التي ينبغي أن تنهض على احترام القوانين وحقوق الإنسان وهي ثورة تختلف حصرًا عن الثورات السابقة التي تقوم على العنف، ونعرف كم أنّ سمير كان يشدّد على نبذه للعنف الذي غرقت فيه البلاد أيّام الحرب الداخليّة في لبنان والخارجيّة على لبنان. فرأى فيها دمارًا على الميثاق والميثاقيين وانفلاتًا للغرائز التي لا ترى إلاّ العنف المسلّح طريقًا للموت والاندثار.

يقول سمير فرنجيّة في محاورة مع مجلّة *Esprit* الفرنسيّة : "إنّ تاريخ لبنان الحديث لم يشهد انقسامًا ما مثل ما يشهده اليوم، وهذا الانقسام هو ليس بين الطوائف المسيحيّة والإسلاميّة حيث أنّ مختلف الجماعات والطوائف هي في المكانين. وهو انقسام ليس بالسياسيّ بحصر المعنى إذ إنّه لا يتناول موضوع إدارة الدولة بقدر ما يتناول طبيعة الدولة ووظيفتها، إنّه انقسام يقوم على ثقافة يتواجه من خلالها فريقان: الأوّل هو فريق تقوم ثقافته على العنف والتطرّف ونبذ الآخر وتأكيد الذات عبر رفض الآخر وطروحاته. أمّا الثقافة الثانية فهي نقيض الأولى وهي تقوم على الرغبة المستديمة في الحوار. إلاّ أنّ هذه الثقافة تعرف ما لا تريد إلاّ أنّها لم تصِغ بما فيه الكفاية ما تريده من صيغة الدولة في العيش المشترك بين مواطنيها وأبنائها. في الرابع عشر من شهر آذار، ما تمّ الإعلان عنه هو رفض العنف نهائيًّا كحلٍّ لمشاكل لبنان وأزماته".

سمير فرنجيّة وتأسيس العيش المشترك

ما يلفت نظر قارئ سيرة سمير فرنجيّة هو واقعيّته السياسيّة، حيث إنّ ثورة الأرز كانت بالنسبة إليه ختام سيرة نضاليّة إلاّ أنّها في الوقت نفسه بداية مسيرة سياسيّة، برزت من خلالها الهويّة الوطنيّة الجامعة التي تتجاوز الهويّات الجماعيّة الخاصّة والتي لا بدّ أن تفرز حسًّا مواطنيًّا مشتركًا يؤسّس للدولة العتيدة. وهذا الحسّ الوطنيّ لا يمثّل مجموعة خاصّة من الطوائف اللبنانيّة وليس حسًّا علمانيًّا مناوئًا للمذاهب والأديان ولا يناقض الخصوصيّات اللّبنانيّة بل إنّه يجمع ما بينها. فقاعدة هذا الحسّ الوطنيّ هو اللاعنف، أي تعطيل لغة السلاح الداخليّ أكان كلاميًّا أم ماديًّا.

وهذه القاعدة بالتالي تقوم على ثقافة السلام والوئام المتجذّرة في أكثريّة قلوب اللّبنانيّين، وهذه الثقافة ليست مجرّد أمنية بل إنّها قرار جماعيّ "للعيش معًا متساويين في الحقوق والواجبات ومتنوّعين في الإنتماءات ولكن متضامنين معًا في السعي المشترك لغدٍ أفضل من أجل اللّبنانيّين جميعًا، بروحيّة المجتمع العادل".

وهذا القرار اللّبنانيّ هو بحاجة إلى ثلاثة عناصر : الشجاعة أوّلاً في الاعتراف بالمسؤوليّة عن الحرب الواقعة وكذلك الشجاعة بإرادة العيش معًا عبر تعزيم الأرواح الشريرة التي خرّبت العيش المشترك. وهذا القرار يستلزم ثانيًا الذكاء الذي يتمتّع به اللّبنانيّ بحيث يستخدمه للإقرار بأنّ العلاقة بالآخر المختلف ليس مصدر خوف وليس فقط ضرورة إجتماعيّة بل إنّه مصدر ثروة للجميع إلى أيّ فئة انتموا. وثالثًا يدعو سمير فرنجيّة إلى تخطّي مفهوم الميثاق الوطني ١٩٤٣، وهو عقد بين اللّبنانيّين، إلى عقد جديد لا يقوم فقط على توافق ومحاصصة بين الجماعات المكوّنة للبنان بل على ذلك الاقتناع من الجميع بأنّ استحالة العيش معزولاً عن الآخرين هو قاعدة لبناء عيش مشترك جديد وهذا الأمر هو من معطيات علم الإجتماع السياسيّ العامّ. وهذا العيش المشترك هو أساس لبنان وعلّة وجوده ويعطي لبنان شرعيّة لوجوده ولصيغته وكيانه.

سمير فرنجيّة الداعي إلى عيش القِيَم الإنسانيّة

ليس بودّي الإشارة إلى إيمان سمير فرنجيّة المسيحيّ أم لا. سمير فرنجيّة كانت لديه قناعة أساسيّة : لا استمراريّة ولا معنى للحياة الإجتماعيّة وحتّى الشخصيّة من دون الإيمان بالأخوّة البشريّة وعندما أؤمن بالأخوّة البشريّة فذلك يعني أنّ أخي في البشريّة هو أخي لا عدوّي وأنّ التسامي القدسيّ المتبادل هو الذي يحكم العلاقة بين أخٍ وآخر. ولو عاش سمير حتّى شهر شباط ٢٠١٩ لكان صفّق طويلاً بيديه القويّتين لوثيقة أبو ظبي التي وقّعها قداسة البابا فرنسيس مع شيخ الأزهر فضيلة الشيخ أحمد الطيّب. فهذه الوثيقة التي ينبوعها هو المجمع الفاتيكاني الثاني خصوصًا "الوثيقة في رؤية الكاثوليك لباقي الأديان" ومنهم المسلمين حيث رأى المجمع في بروز الأديان

تجليًّا لكلمة الله بصورة متعدّدة ومتصاعدة تجد قيمتها في المسيحيّة. فهل أنّ الحداثة هي في تناقض صريح مع الدين؟ فوثيقة الإخوّة الإنسانيّة لا تبني الإيمان بالله والثقة بالآخر لا على النصوص القانونيّة وحسب بل على التذوّق بوجود الآخر ككائن متسامٍ، وهو الله عزّ وجلّ وعلى محبّة عمل الخير لأيّ إنسان.

زمن سمير فرنجيّة، لا زمن الماضي، بل ساعة سمير فرنجيّة ما زالت تدقّ وتدقّ ليتكوّن الوعي اللّبنانيّ المؤمن بأنّ لبنان هو قيمة ثقافيّة وإنسانيّة مضافة لنفسه وللآخرين. كلّ ما يرجوه هو أن نكمل المسيرة وأن نعزّز سيرته، سيرة زمن سمير فرنجيّة، بالأقوال والأفكار العميقة والجادّة وبالأفعال الواثقة التي تؤسّس لليوم الذي يريد للبنان خلاصًا.